يفاضل الأطباء بين من يعالجونه أو يتركونه لمصيره المحتوم (العربي الجديد)

توثق «العربي الجديد» شهادات طواقم طبية نرويجية عادت من غزة، ابتداءً من تعقيدات الدخول التي مارسها الاحتلال الإسرائيلي بحقهم، ومروراً بالأهوال التي شهدوها بأعينهم مع زملائهم الفلسطينيين الذين فقدوهم في الحرب الدائرة

دروب الخوف والآلام

شهادات أطباء نرويجيين عائدين من غزة

أوسلو ـ **رنا زهران**

ضبط جرّاح العظام النرويجي، ثور أرلينغ انغيمير، أعصابه بصعوبة بالغة، ولجم مشاعره حتى يتمكن من أداء عمله في بتر قدم فتاة غزيّة تبلغ من العمر 13 عاماً في مستشفى كمال عدوان شماليّ القطاع. «كانت في عمر أطفاله، وفقدت ساقها، وقبلها أشقاؤها الستة، ووالدها» يقول انغيمير، الذي كافح كثيراً حتى لا ينهار أمامها، رغم أن خبرته تستدعي ضبط انفعالاته، خصوصاً أنه يشغل منصب رئيس الأطباء في مركز تابع لبلدية مدينة ليلي ساندس بمقاطعة أغدر Agder (جنوب)، لكن مدة عمله في غزة التي استغرقت خمسة أسابيع ضمن بعثة لجنة المعونة النرويجية - نوروك Norwac Aid Committee (غير حكومية تقدم الخدمات الطبية إلى ضحايا الصراعات)، لا تضاهي مآسيها كل ما رآه قبلها. خلال عمله في مستشفى العودة بمخيم النصيرات وسط القطاع ومستشفى كمال عدوان، كان يخرج من صدمة ليدخل في أخرى، حتى إنه بات مذهولاً أمام أطفال من غزة كانوا لا يصرخون، ولا يبكون، رغم ما لحق بأجسادهم من إصابات قد تؤدي إلى خسارة أجزاء منها، بينما في المستشفيات النرويجية، لا يتوقف صراخ الأطفال عند تعرّضهم لأقل إصابة، ومن غير المنطقي مقارنة آلامهم بما يعانيه أطفال غزة الذين خسروا العائلة والأصدقاء والمنزل والمدرسة، وكل ما يعرفونه مُزِّق في غضون دقائق، «فالأمر قاسٍ جداً باعتباري أباً لطفلتين في سنّ المراهقة، ما رأيته ترك جرحاً غائراً في النفس»، يوضح الطبيب. هذه الآلام التي حملها انغيمير معه إلى النرويج بعد العودة من غزة، يشترك فيها مع أطباء آخرون خدموا في مشافي القطاع منذ بدء العدوان الإسرائيلي في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول عام 2023، والتقتهم «العربي الجديد» لتوثيق شهادتهم على ما رأوه من جرائم جيش الاحتلال بحق الفلسطينيين.

دروب الخوف والآلام

الوصول إلى غزة ليس سهلاً، حتى للأطباء الذاهبين في مهمة إنسانية، كما يقول اختصاصي أمراض القلب والصدر في مستشفى جامعة أوسلو ورئيس بعثة نوروك، إيريك فوسي، الذي بدأ رحلته بمعية فريق مؤلف من جراح وممرضتين ذهبوا إلى مصر عقب نشوب الحرب بثلاثة أيام، من أجل التنسيق ودخول غزة عبر معبر رفح، وكان بصحبتهم الطبيب النرويجي مادس غيلبرت الذي لطالما تنقل بين مناطق الصراع لتقديم الخدمات الطبية. حينئذ بدأ التعاون مع منظمة الصحة العالمية، باعتبارها المسؤولة عن إدخال أطباء دوليين، لكن استغرق الأمر حتى شهر يناير/ كانون الثاني من عام 2024، وحينها حصل الفريق الطبي على إذن من إسرائيل بالدخول. تكررت التجربة مرتين مع جراح العظام في مستشفى أوليفال بأوسلو، غاير ستاين أندرسن، الذي رافق بعثة نوروك الطبية أول مرة في يناير، وعاد للخدمة التضامنية في القطاع خلال إبريل/ نيسان الماضي، ولا تقارن تلك التعقيدات بما عاشه من قبل في حروب سابقة، إذ عمل في غزة من قبل سبع عشرة مرة، كانت أسهل في الدخول والخروج والتعليمات واضحة، لكن خلال مراحل الحرب الجارية تغيرت التعليمات، ولم يعد متاحاً أمام الأطباء الولوج إلى القطاع عبر معبر رفح، وبات يتعين عليهم السفر عبر معبر كرم أبو سالم، والمرور بأراضي الداخل الفلسطيني المحتل وصولاً إلى غزة. ولا يقتصر التشديد على إجراءات الدخول، بل على عدد أفراد الطواقم الطبية التي يسمح لها بالمرور، ما دعا منظمة الصحة العالمية إلى اختيار الأطباء وفق الاختصاصات ذات الأولوية التي تحتاجها مستشفيات القطاع في هذه الظروف القاسية. ولا ينحصر التعنت الإسرائيلي في منح إذن الدخول فحسب، «بل إن الانتقال من جنوب القطاع إلى شماله مليء بالرعب حتى وإن تعلق الأمر بسفر طاقم طبي»، كما تقول الممرضة النرويجية، سولفاي راتشي غارد، التي عملت في مستشفيات غزة مع فريق منظمة نوروك لمدة ثلاثة أسابيع، وعادت إلى بلادها في بداية شهر مايو/ أيار الماضي. «فصوت الرصاص والقصف لم يتوقف طوال مسيرنا في الطريق إلى الشمال». تستذكر غارد مشاعر الخوف التي لازمتها وقشعريرة بدنها، وتكمل بقولها إن الوضع كان يستدعي من منظمة الصحة العالمية متابعة التنسيق مع كل من حركة حماس والجيش الإسرائيلي طوال الوقت لضمان وصول الطاقم الطبي بأمان، لكن كان من الصعب جداً، كما تقول غارد، إدخال أدوات طبية إلى الشمال، إذ كان معهم شاحنة تحمل مئة كيلو من الأدوية والمعدات الطبية والوقود، وعلى الحدود الفاصلة بين الجنوب والشمال أعادها جيش الاحتلال لتظل في الجنوب. لكن ما عانته لم يثنها عن عملها الإنساني و«رغم خطورة الطريق بين شمال غزة وجنوبها، في المرة القادمة سأرافق فريقاً طبياً وسنتوجه على الأرجح إلى الشمال».

يعرقل الاحتلال وصول الأطباء المتطوعين إلى غزة ويحدد عددهم

منظمة الصحة العالمية كلفت فريق نوروك توثيق مشاهداتهم

الأطباء مضطرون إلى المفاضلة بين الحالات

يضطر الأطباء في مستشفيات القطاع إلى إجراء مفاضلة واختيار من يُعالَج على أساس تقييم الإصابة وحالة المريض وإمكانية شفائه أو لا، وهو إجراء مؤلم اضطروا إليه بسبب النقص الشديد في الإمكانات وأفراد الطاقم الطبي الذين ينقسمون بين شهيد ومعتقل ونازح. في المقابل، يستمر تدفق الإصابات الضخم، بحسب ما عاينه الجراح أندرسن في مستشفى غزة الأوروبي بخانيونس جنوبي القطاع، وكذلك في مستشفى العودة الذي خدم به في إبريل الماضي، وكان الفريق الطبي النرويجي يتدخل للمساعدة في تقديم المطلوب للحالات التي يقع عليها الاختيار. «المشافي تفتقر إلى كل شيء»، وفق فوسي، وعلى مدار شهر من عمله في غزة، كان اثنان من المستشفيات يعملان، هما مجمع ناصر الطبي في خانيونس، ومستشفى الأقصى في شمال القطاع، ولديهما عدد أسرّة محدود، وما يبذلانه قياساً بالكثافة السكانية لمدينة غزة محدود. أما المستشفى الأوروبي، على سبيل المثال، فيعاني وضعاً صعباً جداً، وتسوده الكثير من الفوضى. وحتى اليوم يهدد نقص الوقود المرافق الصحية في القطاع، وفق ما أعلنته وزارة الصحة الفلسطينية في نداء استغاثة نشرته في 8 أكتوبر الجاري. وهذه نتيجة حتمية للتدمير المنهج للقطاع الصحي في غزة، إذ وصل إجمالي المستشفيات التي أخرجها الاحتلال عن الخدمة إلى 34 مشفى، بالإضافة إلى 80 مركزاً طبياً، و162 مؤسسة صحية، و131 سيارة إسعاف، ما أدى إلى استشهاد 885 فرداً من كوادر الطواقم الطبية، إلى جانب اعتقال 310 منهم، لينقص عددهم، وبخاصة أطباء الجراحة الذين هم أصلاً قليلون في غزة، بحسب بيانات المكتب الإعلامي الحكومي الصادرة بتاريخ 15 سبتمبر/ أيلول 2024. هذا الاعتداء الذي طاول العاملين في القطاع الصحي والمستشفيات يصفه فوسي بأنه مقصود ومُوجه في هذه الحرب تحديداً. بينما رآه أندرسن «أمراً مؤثراً بشكل كبير»، خصوصاً أنه على معرفة بممرضين وممرضات وأطباء قتلوا، مثل الجراح عدنان البرش، رئيس قسم العظام في مستشفى الشفاء، الذي استشهد تحت التعذيب في سجن عوفر الإسرائيلي، إذ زامله عشر سنوات، عدا ذلك، فإن الدمار الهائل الذي رآه أندرسن في هذه الحرب لم يسبق أن رآه أو يتصور وقوعه، وخصوصاً أنه لم يقتصر على المنازل، بل طاول المشافي والجامعات وكل شيء.

منظمة الصحة تكلف نوروك توثيق مشاهداتهم

تحصل Norwac Aid Committee على دعم كبير من وزارة الخارجية النرويجية، ولديها علاقات وطيدة وحوار متبادل مع السلطات حول ما شاهده الأطباء المتطوعون في غزة، كما ترفد الفرقَ الطبية التي وصل عددها إلى أربعة منذ بداية الحرب، الإعلام النرويجي بتقارير عما يحدث في غزة في أثناء فترة عملهم هناك، بحسب فوسي، مؤكّداً: «لا نأخذ موقفاً سياسياً مما يحدث، بل فقط نرسل ونوثق ما يجري». وعن الشعور بالمسؤولية، وتحديداً في عملية توثيق مشاهدات الفريق الطبي، يقول أندرسن إن منظمة الصحة العالمية أوكلت لنا مهمة توثيق ما يجري بقولها: «إننا أعين للعالم على الأرض بخاصة في ظل غياب أي إعلام دولي غربي في غزة». وتحرص الممرضة سولفاي غارد على نشر حقائق عن المعاناة التي كانت شاهدة عليها وعن التجارب التي عاشتها، عبر إلقاء محاضرات في المستشفى الذي تعمل به في ترونديهايم (شمال)، وبالتعاون مع منظمة إنقاذ الأطفال. «مع ذلك، فإن مشاهدة الأخبار في الإعلام بالطبع هي شيء مختلف عن تجربة الأمر على الأرض»، تقول غارد التي تنشر بين الفترة والأخرى صوراً لغزة المدمرة التقطتها بينما كانت هناك.

مراكز إيواء أم مشافٍ؟

عاش فوسي في المشفًى الأوروبي لمدة شهر خلال يناير الماضي، ويصف حياته بأنها كانت ضمن مخيم لجوء يضم 25 ألف شخص جاؤوا من كل فجّ عميق في القطاع، ويتوزع النازحون في حديقة خلفية كبيرة للمستشفى، وداخلها وخارجها، وهو أمر غير معقول، لأن عددهم يقارب سكان مدينة صغيرة في النرويج، على حد وصفه، خصوصاً أنهم بحاجة إلى الغذاء واستعمال المرافق الصحية والعديد من المتطلبات الحياتية، ما أضاف عبئاً على إدارة وطاقم المستشفى المرهق أساساً. أما مستشفى العودة، فقد خلا من النازحين خلال الفترة التي كانت فيها غارد أواخر إبريل الماضي، إذ قررت الإدارة عدم استقبال نازحين، نظراً لتبعات ذلك على استقبال المرضى وعلاجهم، بالإضافة إلى أنّ من الممكن أن يسبب مشاكل أمنية، ويستهدف المستشفى بالقصف. وهو ما كرره الاحتلال، فقد «تتذرع إسرائيل بأن عناصر من حماس يختبئون داخل المستشفيات، ونحن الأطباء لم نشاهد أي جندي لحماس داخل المستشفيات التي عملنا فيها»، يقول فوسي، الذي عمل في غزة خلال حروب مختلفة (2009 و2014 و2021) ولم يشاهد أي عسكري في المؤسسات الطبية، ما يؤكد أن هدف الهجمات الإسرائيلية البنية التحتية، لا العسكريون.